

الاديب والناقد

بقلم ميخائيل نعيمة

نأتي حركة من الحركات عفوية كانت او عن سابق قصد وتصميم - الا نتيجة لعدم اطمئناننا الى وضع نحن فيه ، والا تشرقاً منا الى وضع أفضل منه .

ما هو الجوع ؟ انه قلق الجسم اذ يشعر بحاجة الى الطعام . وهذا القلق يرافقه الشوق الى الطعام والسعي اليه . حتى اذا

ظفرنا به انتقلنا الى قلد جديد

هو قلق الهضم ، وشوق جديد هو

الشوق الى التخلص من بقايا

الطعام التي لا قبل لنا بهضمها .

وما ان تنهي الدورة حتى تعود

لتبتدى من جديد . كذلك هي

حالتنا مع العطش والري ، والتعب

والراحة ، والنوم واليقظة وكل

عمل نعمله ، وفكر نفكره ،

وكلمة ننطق بها ، فما من حركة

نأتيها الا كان الدافع اليها قلقنا

من حالة نحن فيها وشوقنا الى

حالة افضل منها .

في مثل هذا العالم الذي

كله قلق وشوق يعيش هذا

«الحيوان المستحدث من جماد»

فلا غرو ان يكون هو كذلك

في شوق وقلق دائمين . اذ لا

مندوحة له عن مطاوعة الكون

الذي هو بعض منه وعنصر

متمم لعناصره . لكنه لا يعيش

في هذا العالم العجيب نظير ما

تعيش قطرة الماء في البحر ،

لو شئت ان احدد النقد بكلمات ثلاث لقلت انه عمل الحياة الدائم . فهي ما زرعت الفضاء شمساً واقماراً وكوكبات ومجرات ، ولا فجرت من اديم الأرض هذه الاشكال ما بين سائل وجماد ونبات وحيوان وانسان ولونها بسائر الالوان ، ولا ربطت كل ذلك بنظام شامل مانع ، لتتبع من بعدها في

زاوية من المسكونة ، وتنظر

الى زرعها بعين الرضى ، ثم

تقول معتزة بما صنعت : «انه حين

جداً» . فلو انه كان هذا اقصى ما

تستطيعه او تتوخاه لما امعنت

فيه تبديلاً وتغييراً ، وتحريفاً

وتحويراً . فما تفتت نجوم

وتكورت نجوم ، ولا انقرضت

اجناس وبرزت الى الوجود

اجناس ، ولا هاج بركان ،

وطغى بحر ، وزجر اعصار ،

وقرقر زلزال ، ولا كان

انطلاق بعد انفلاق وانفلاق

بعد انطلاق ، او نمو ينتهي الى

انحلال وانحلال ينتهي الى نمو .

ولا كان « هذا الحيوان

المستحدث من جماد» الذي حار في

نفسه على ما حارت البرية فيه .

لو كان لنا ان نجري على

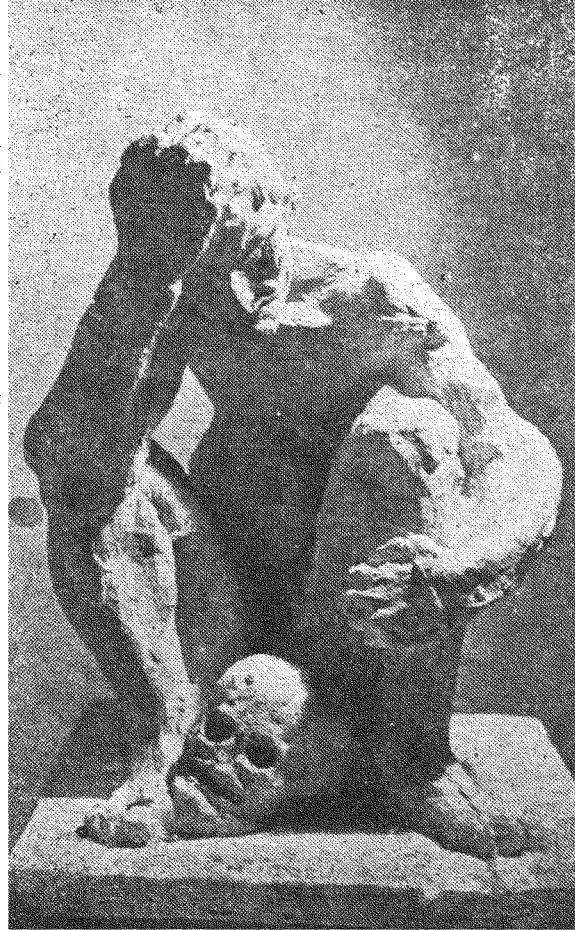
هذه الحركة الكونية التي لا

تنقطع ولا رفة جفن مثل

الاحكام التي نجريها على حركاتنا

البشرية لقلنا انها نائمة عن قلق

وشوق في آن معاً . فنحن لا



الكاتب

تمثال للفنان ناظم ايراني (لبنان)

نفسه من قلق تجاه امور يجهلها ويتشوق الى معرفتها ، فهو شاعر ناقد .

وها هي صحافة العالم لا يشغلها شيء مثلاً يشغلها نقد ما في العالم من اوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية واخلاقية وسواها . فالتقد دينها ودينها . اذا تخلت عنه فقد تخلت عن وجودها . كذلك قولوا في جميع علوم الناس وفنونهم فهي من اجلها حتى اقلها قيمة ضرور من النقد المنبثق عن الشوق والقلق .

ثم ها هي السنة الناص في كل زمان ومكان لا يلذها امر من الامور على قدر ما يلذها التحدث عن معائب الآخرين وعاسنها . ومن منا لم يتل بجماعة او جماعات ينفقون الساعات الطوال في تشريح الناس لا يوفرون قريباً او غريباً ، ولا يعفون عن صديق او عدو؟ انهم النامون والمغتربون والثرائرون ونعيمة هؤلاء وغيبتهم وثر ثرتهم ضرور من النقد كذلك . فهم من حيث يدرون ولا يدرون ، يفرجون عن قلق او عن كربة في نفوسهم ويفضحون فقرهم وشوقهم الى صفات احسن من تلك التي ينتقدون .

والآن اذا عدنا من بعد هذا التمهيد الى الكاتب والناقد - وهما موضوع الحديث - وجدنا ان ذلك وهذا يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب في ما يكتب انما يعبر عن قلق تثيره فيه حواسه الخارجية والباطنية من اوضاع بعينها ، وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . ويأتي الناقد ليعبر عن القلق الذي يثيره فيه عمل الكاتب ، وعن شوقه الى الانعتاق من ذلك القلق .

واذ ذاك فعمل الناقد هو نقد النقد ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلولا الكاتب لما كان الناقد . ولا يصح العكس وذلك هو الفارق الأول والاهم ما بين الاثنين - وانا عندما اقول في الكتابة انها - كأي عمل بشري آخر - تصدر عن قلق وشوق لست اريد ان يتبادر الى الذهن انها عملية بسيطة . بل هي عملية في منتهى التعقيد . فلا القلق ولا الشوق من المشاعر التي يسهل فهمها وتحليلها . فنحن اذ نحس القلق لانحس بالعين دون الأذن ، او بالأذن دون الانف واليد واللسان . اننا نحس بكل قطرة من دمائنا ، وكل نبضة من قلوبنا ، وكل جارحة من جوارحنا - نحس بكل ما في جهازنا البدني من دقائق لا تدرك ولا توصف ، مثلما نحس بافكارنا

او نسمة الهواء في الفضاء ، او عشبة في مرج ، او ضفدع في مستنقع ، او بومة في خربة . فهو يملك في عيشه فوق ما تملكه سائر الكائنات حوالبه من مقدرة على التفكير والتمييز والخلق والتخيل والارادة والافصاح عن هذه جميعها بكلمات و اشارات تؤدي معاني بذاتها . فهو من هذا القبيل نسيج وحده ما بين كل شركائه في الأرض .

ما كان الإنسان في حاجة الى التنكير والتمييز والخلق والتخيل والارادة والافصاح من هذه جميعها لو لم يكن العالم الذي يسكنه عالماً ازدوج ثم تناقض كل ما فيه . فذكر وانثى وبعيد وقريب ، وطويل وقصير وحار وبارد ، وثقيل وخفيف ، وابيض واسود ، وحلو ومر ، الى آخر ما هنالك من متناقضات . ولا كان القلق والشوق لولا الحاجة الدائمة الى الاختيار ما بين هذا الشيء او نقيضه . او ذلك انكرو وعكسه ، او هاتيك العاطفة واختها التي على الحرف الآخر منها ، فنحن مدعوون في كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتمييز والاختيار - اي الى النقد .

ان طفلاً يبكي لطفل محتج بصوته ودموعه على الحالة او الحالات التي سببت له البكاء ، سواء اكان المتسبب برغشة او انساناً . واحتجاجة ضرب من النقد .

وان تلميذاً يهرب من مدرسته الى البرية لتلميذ يقول لمعلمه : اني اوثر خوار انور او خربير الساقية ، او صوت العصفور على صوتك واوثر مدرسة الغاب والحقل والوادي على مدرستك ، فقوله نقد كذلك .

وان شيخاً هرمأ يتبرم بضعف بصره وركبته ، وبرجفة في يديه ، وطنين في اذنيه ، ودوار في رأسه ، وقشعريرة في دمه لشيوخ يلوم القدرة التي اوصلته الى ما هو فيه . ولومه تند كذلك .

وان شاعراً يسأل : (١)

لماذا السفينة تطلب ريحاً ومن تحتها البحر طائله ؟

وفي القفر عطشى يريد ن ماء

وريح السموم بهم تازله .

لماذا التناسل ، والنسل يدري بان الحياة له قاتله ،

أكميا نزيد المقابر رسماً ، ونصغي الى أنة الثاكلة ؟

ان شاعراً يطرح مثل هذه الأسئلة لشاعر يفضي بما في

(١) نسيب عريفه في قصيدة «المذا» - الارواح الحائرة .

واذواقنا وميولنا وخيالنا وجميع ما يدخل في تركيب جهازنا المعنوي او الروحي ، كذلك هي حالنا مع الشوق . وكلا الشوق والقلق يتفاوت عمقاً وعنفاً ومدى بتفاوت البواعث التي تبعته ثم بتفاوت القوى التي تعيه وتتأثر به . وهذه القوى هي العقل والوجدان والخيال والذوق والارادة . وهي لا تتساوى ابداً حتى عند اثنين من الناس . فكيف بها تتساوى عند جميع الناس ؟

من هنا هذا التنوع الدائم في ما نقول ونكتب ونعمل فما اتفق اثنان يوماً من الأيام في التلق والشوق ، وفي كيفية التعبير عنها ، حتى وان وضعناها ، او وضعتهما الحياة في عين الظروف والاحوال . وكيف يتفقان وجسم ذلك غير جسم هذا ، وعقله غير عقله ، ومزاجه غير مزاجه ، وذوقه غير ذوقه ، وميزان الخير والشر عنده غير ميزانه ، وارادته غير ارادته ؟ ان هذه جميعها تتكون وتنمو فينا عن وعي وعن غير وعي منا . لانها نتيجة تفاعل دائم بيننا وبين سائر الكائنات - منظورها وغير منظورها . فلا سبيل لنا الى سكبتها في قالب واحد . لئن كان لنا ان نتحكم في عقولنا واذواقنا وارادتنا وميولنا الى حد ما ، فمن اين لنا ان نتحكم في تكوين اجسادنا وما نحن هيأناها وهيأتها لنا اقدرة غير قدرتنا . ؟ ثم كيف لنا ان نتحكم في الأرض وما عليها والسماء وما فيها - واقلها يفرض وجوده وسلطانه علينا فرضاً ؟ فأني عجب اذ ذاك ان لا تتساوى في الشوق والقلق وفي كيفية التعبير عنها ؟

يؤلف احدهم رواية او اقصوصة او مسرحية ، او ينظم قصيدة ، ويدبج مقالة ، فلا هو يجري ولا نحن نستطيع ان نتحكم ، كيف فعل ذلك ، ولماذا . فدوافع الشوق التي من وراء عمله هي في الغالب أعقد من ان يحلها فكره او قمننا . فقد تكون رغبة منه في الشهرة او طمعاً في المال ، او حباً بالارشاد او ترضية لصديق او حبيب ، مثلما قد تكون مخاضاً كمخاض الحامل . فليس علينا ان نتقصى الدوافع التي دعتنا على الكتابة ، ولا ان ندينه لانه كتب . ولنا اذا نحن شئناه ان نقرأ ما كتب ، فاذا قرأنا فيه قلقاً يشبه بعض ما يقلقنا ، او شوقاً يضارع بعض اشراقنا ، ثم وجدناه يعبر عن ذمك القلق او الشوق تعبيراً نصدقه ونطمئن اليه ، او نتمنى لو يكون لنا مثله شعرنا بشراكة الحياة بيننا وبينه وقلنا : « بارك الله فيه . انه لحم من لحمنا . ودم من دمنا . ولقد ترجمنا الى انفسنا . لكن

خير الترجمان .

الا ان من الناس من يقرأون ولا يفهمون كل ما يقرأون او يفهمون عكس ما يقرأون . فيمرون باللؤلؤة الفريدة وكأنهم يبرون باكرة من زجاج . او يبرون باكرة من زجاج فيحسبونها لؤلؤة فريدة . ان للمثل هؤلاء قام النقد والناقدون .

قلت في بداية هذا الحديث ان النقد هو عمل الحياة الدائم . ولا بد من القول هنا ان الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقدين منا وفيما لفرق شاسع جداً . فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . اذ ليس ما هو خارج عنها لتوجه اليه نقدها ولأننا بعض من ذاتها فهي تنقدنا كذلك في كل لحظة من وجودنا . في حين اننا ننقد الغير وقلما نوجه نقدنا الى انفسنا . ومن ثم فالمقاييس التي تستند اليها الحياة في نقدها لذاتها هي غير المقاييس التي نستند نحن اليها في نقدنا الغير . فما هي مقاييسنا بالنسبة الى مقاييس الحياة ؟

والجمال والحق والخير - هذه الكائنات الثلاث تتردد على اقلام الكتاب والنقاد والسنتهم كلما حدثوا عن الأدب وقيمتهم ورسالته . واذن فالناقد الذي يتعرض الى اثر من الآثار الادبية عليه ان يعرف الحق وان يميز الخير وان يحيط بسائر صفات الجمال ، كما يحل له ان يصدر حكمه في ذلك الأثر . الا ان مثل هذا الناقد لا وجود له على الاطلاق . اذ ليس في الناس من يعرف الحق كل الحق ، ويميز الخير كل الخير ، ويحيط بالجمال كل الجمال . فنحن ما نزال من الادراك في عالم النسبة . فما كان حقاً بالنسبة الي قد يكون باطلاً بالنسبة اليك . وما كان خيراً عندك قد يكون شراً عندي . وما كان جمالاً في عيني قد يكون قباحة في عين جاري . وعندئذ فمقاييس الناقد هي مفاهيمه الخاصة للحق والخير والجمال . وهذه تسمو وتنحط على قدر ما يكون نصيب الناقد من التفتح الروحي ، والاتزان الفكري ، وسلامة الذوق ، وحدة المدن ، وصناء العين والقلب ، واتساع الخبرة بآثار الانسان واخباره منذ اقدم العصور حتى الساعة .

ان على الناقد ان يخلق مقاييسه من نفسه وعليه اذا كانت له المقدرة ، ان يحمل القارئ والكتاب الذي يتقده على احترامها والايان بها . ولن يتسنى له ذلك الا اذا كان انقى بصيرة واوسع آفاقاً واسلم ذوقاً ، واصدق نية ، وامضى عزماً واشد

- التتمة على الصفحة ٨٥ -

الاديب والناقد

— تمة المنشور على الصفحة ٥ —

ثقة بنفسه ومقاييسه من قارئه ومن منقوده . اما اذا كان في كل ذلك على مستوى واحد مع قارئه ومنقوده فنقده لا يزيد عن ان يكون ضرباً من التنبيه والتسجيل . واما اذا كان دون مستوى قارئه ومنقوده فنقده تعب مهذور ودواء لمن ليس يشكو اي داء . بل انه في مثل تلك الحالة ، قد يكون تحقيراً له وتشهيراً . وما اكثر ما يحقر بعض النقاد انفسهم ويشهرونها من حيث يقصدون تحقير الغير وتشهيرهم .

أجل . ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو ان يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره . فقد يقلقه اشد القلق ان يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء . فيثور ثائره ولا يهدأ باله حتى يعلن الملام انه ارسخ قدماً في علم النحو من مؤلف الكتاب . وان اللام لا تجوز في هذا المقام . وتجوز الباء .

وثورته هذه قد تعميه عن حسنات حمة في الكتاب الذي بين يديه . ومن جهة ثانية ، قد تشوقه من شاعر براعة في وصف الثغر او الهد او الردف ، فيمضي يكيل المدح كأنه حاتم الطائي يوزع اللحم على الجياع والدرهم على الفقراء . ويعميه الثغر او الهد او الردف عما قد يكون في الديوان من فحش وفجور واسفاف خلقي ، كأن هذه كذلك من مقومات الحق والخير والجمال .

ما من شك في ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى النتاج الادبي وهبوطه . فالادباء الكبار يمهدون الطريق للنقاد الكبار . ولا اعكس فاقول ان النقاد الكبار يمهدون الطريق للادباء الكبار . فالعبقريّة الحقّة تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مادح او قادح . وهل في استطاعة نقاد العرب مجتمعين ان يخلقوا متنبياً واحداً او ان يحولوا دون خلقه ؟ ام هل في استطاعة جميع نقاد الفرنجة ان يأتونا بشكسبير آخر ؟ واذا قام شكسبير آخر فهل في استطاعتهم ان يطفئوا الشعلة التي في صدره ؟ ولو ان كل من في الأرض من نقدة حاولوا ان يجعلوا من شويعر شاعراً ومن كويتب كاتباً او ان يسدوا السبل على الكويتبين والشويعرين فلا يقتحمون حومة

الادب ، لباعوا بالفشل من غير شك . اما كبار الكتاب والشعراء فقد خلقوا نقدة كثيرين ما بين كبير ومتوسط وصغير . مثلما خلقوا الكثير من المقلدين والطفيليين .

حيثما كثرت القمم الشاخنة قلت الدهشة للتلال . وحيثما كانت الانهار الكبيرة قلت قيمة السواقي . اما حيث لا قمم شاخنة ولا انهار كبيرة فالكثبان والسواقي تبدو كما لو كانت ابداع آيات الله في خلقه ، والمثل العامي يقول : « من قلة الرجال سموا الديك ابو علي » . وعندنا من كرم المولى كثبان وسواقي كثيرة . فلا عجب ان يكون نقدنا حتى اليوم في مستوى الكثبان والسواقي ، ثم ان يكون لنا في كل يوم كاتب « كبير » وشاعر « عظيم » !

لست اريد ان اقلل من قيمة الناقد وعمله فاقول ان وجود وعدم وجوده سيان . ولكنني لا اريد كذلك ان ابالغ فيها فأقول ، ان النقد دعامة لا يقوم الادب الا بها وعليها . ففي استطاعتنا ان نؤلف الروايات والاقاصيص والمسرحيات وان ننظم القصائد ونحبر المقالات ، وان نخطب في شتى الموضوعات ثم ان نترك امر تقدير ذلك كله للقارئ والناظر والسامع وللزمان . فان اخطأ تقدير القارئ والناظر والسامع لن يخطئ تقدير الزمان في المدى الطويل . واذا كان من الناقد من بلغوا مرتبة عالية من الاحترام والتقدير امثال « سنت بييف » و « تن » عند الفرنسيين ، و « والتر باير » و « جان رسكين » عند الانكليز ، « وبيلتسكي » عند الروس ففضل هؤلاء في انهم كانت لهم في نفوسهم كنوز من الافكار والاحاسيس وبراكين من الاشواق . هذه الكنوز والبراكين ما تكشفت ولا تفجرت الا لدى احتكاكها بكنوز وبراكين مماثلة لها في نفوس بعض العباقرة من الشعراء والكتاب . فهي ثمينة في ذاتها لا في كونها جاءت تعليقاً على هذا الكتاب او ذاك . والذي يزيد في اثمانها انها برزت الى الوجود في اكسية تكاد تهر العين بما فيها من دقة ومثانة في النسج والحبك ، وتكاد تلهب بما فيها من حرارة ونور .

ان الناقد الذي لا يعين على حساب غيره كما تعيش الطفيليات على بعض النباتات والحيوانات بل يعطيك من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال تستهويك وتفرض احترامها عليك هو الناقد الذي يرفع النقد الى مرتبة الفن العالمي والذي يسر الادب بان يتبناه ويعتر به . فهو مرشد من مرشديه ومنارة من مناراته ، وبان من بناته . وكثيراً ما يكون نقده من الاشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرماً على اتجاه قديم في الأدب ويدفع به في اتجاه جديد ، وبحيث يغدو الزعيم الذي

بفضله تفتتح وحواليه تلتف المواهب الفتية في الأمة ، انه روح الثورة في الأدب ، والادب الذي لاتمهز الثورات من حين الى حين لأدب همدت ريحه ، وشح بصره ، وتصلبت شرايينه ، فهو الى الموت اقرب منه الى الحياة .

اما الناقد الذي لا يجد لقلمه مادة الا في كتاب يؤولفه غيره والذي يحصر همه في الكشف عما في ذلك الكتاب من معائب ومحاسن - حسبما تراءى له المعائب والمحاسن - فناقد نفعه للادب قليل مهما بلغ من براعة في السبك والسخرية والتهكم . انه كالدجاجة التي لا تبيض ، ولكنها تفوقى كلما باضت رقيقة من ريفقاتها . او كبعض الطيور التي لا تبني لنفسها اعشاشاً ، ولكنها تضع بيضها في اعشاش غيرها . وأمثال هذا الناقد هم الكثرة الساحقة بين النقاد في بلادنا العربية وفي كل البلاد . انهم لا يخلقون ولا يوجهون ولا يثرون . ولكنهم يضحون . وضجتهم لا تمضي بغير اثر ، فقد تكون بمثابة اعلان للكتاب او للكاتب الذي يتقدون - او لانفسهم : فما اكثر ما يتهافت القراء على كتاب تافه لأن النقاد اثاروا حوله ضجة ، وما اكثر ما يعرضون عن كتاب قيم لأن النقاد اعرضوا عنه . ويمشي الزمان شوطاً ، واذا بالكتاب التافه يغدو طعاماً للفقار او للثار ، ومسكناً للعث والغبار . واذا بالكتاب القيم الذي اعرض النقاد عنه يشق طريقه على منزل ، ويشقه بعزم وثبات ، وبرغم انوف النقاد . وما ذلك الا لانه غني بجرائم الحياة ، ولأن الكتاب التافه هلك له النقاد وكبروا غني بجرائم الموت .

لست اجعل ان الحديث عن النقاد ، كالحديث عن الكتاب حديث ذو شجون كثيرة ووجوه كثيرة . الا انني ، وقد قلت في النقاد ما قلت اريد ان اقول كلمة بعد في العلاقة بين الكاتب والناقد : ما هي في الواقع وكيف يحسن ان تكون .

الشائع عن النقاد انهم قلما اتفقوا على رأي واحد في تقديرهم للأثر الواحد . ولاعجب فهم ينظرون الى الأمور بمنظار واحد والشائع عن الكتاب انهم يتلهفون الى كل كلمة تقال في مؤلفاتهم . ولكنهم يريدونها كلمة نجلاء لا عيباء . فان جاءتهم مذمة حيث كانوا يتوقعون العكس فاضت مرائرهم ، واثار ثائرهم ، وتولاهم الشعور بان لا بد من رد الاذى بالاذى ، ومحو المذمة بالمذمة . وهكذا ينطلقون في نقاش لا طائل تحته مع الناقد الذي غمز من قناتهم . وان هم لم يناقشوه اعرضت عنه قلوبهم في كل حال فبات وكأنه الشوكة

في جنبهم او الصل في دارهم : ورد الفعل هذا اذا نحن خفرتنا للكتاب الناشئين شق علينا كثيراً ان نغفره للكتاب الذين لهم في الأدب قدم راسخة وقامة بعيدة الظل . ولقد عرفت من هؤلاء من اذا عابهم عائب اولاهم لائم ، اصيبوا بما يشبه الكلب . فلا يملو لهم اكل ولا نوم . ولا يرضيهم الا ان ينهشوا الذي عابهم اولاهم بكلمة . واذا مدحهم مادح ، ولو بما ليس فيهم ماعت قلوبهم في صدورهم ، واشرقت اساريرهم وطفرت دموع الفرحة من عيونهم ، حتى العبقرية لا تصفو من الاكدار ولا تخلو من الرواسب .

عرفت ادباء ناشئين ، وادباء بين بين ، يؤذيهم النقد اذا في غير صالحهم الى حد ان يقضي او يكاد على مواهبهم التي لم تستكمل بعد نضجها ، فعلاقتهم بناقديهم لا يمكن في أي حال ان تكون علاقة مودة واحترام متبادل .

ان علاقة الكاتب بالناقد هي على الاحمال علاقة قلق وحذر وحرب ، قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الاخرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لو صفت نية الناقد واستقامت موازينه ، واخلص لنفسه ولعلمه . ولو اتسع افق الكاتب وصدوره ، واستأنست نفسه بما يكتب شاعرة بأنها ما كتبه ارضاء لفلان ونكاية بفلان ، او حباً بشهرة او بمال ، بل خدمة للحق والخير والجمال كما تفهم الحق والخير والجمال ، وانها قد استخدمت في كتابته منتهى ما تملك من قوة الفكر والخيال ، والوجدان والبيان ، فما همتها اذ ذلك ما يقوله فيه ناقد او قارئ ؟ العن الناقد والقارئ يفهمان دخيلتهما خيراً مما تفهمهما هي ؟ وكيف ترضى ، وهي الواثقة من صدق ما تقول ، ان تقيم الغير حكماً على صدقها ؟ ان لها مقاييسها وموازينها . وهي ما اختارتها الا بعد جهد وعناء . فأني بأس اذا اختلفت هذه المقاييس والموازين عن مقاييس الغير وموازينهم ؟ ومن يدري ؟ فقد تندثر مقاييس الغير وموازينهم وتبقى مقاييسها وموازينها .

هكذا يجدر بالكاتب الذي يكتب ويعرف قيمة ما يكتب ان يخاطب نفسه . فلا يزعجه ذم ناقد ولا يستخفه مدح قارئ وعلى الاخص اذا هو احسن نقد نفسه . فناقد نفسه في غنى عن نقد الناس . وهو يطاوع في ذلك الحياة التي لا تنفك نحاسب نفسها في كل طريقة عين . فهي الناقد الاكبر والمبدع لأعظم . وانه لمن حسن حظكم وحظي وحظ جميع الكائنات التي

تستطيب البقاء ، مع كل ما فيه من قلق وشقاء ، ان الحياة لا تأبه بقلنا وقالنا ، وان لا وجه شبه على الاطلاق بين مقاييسه في النقد ومقاييسنا . والا لما كان لنا في الوجود من نصيب . فهل في مستطاعكم ان تتخيلوا ماذا كان يحل بالناس وسائر الكائنات لو كانت لكل منهم الحرية وكان له السلطان ، ان يطبق على الطبيعة مقاييسه الخاصة في الحق والخير والجمال ؟ لقد كنا نبدأ ، اول ما نبدأ بآبادة جميع الحشرات والنباتات والحيوانات التي تزعجنا اما بحركاتها او باصواتها ، او باشكالها ، او بالوانها . فلان بقي على دودة او ذبابة او برغشة او بقعة او قملة او زنبور او حية . ولا على بومة او وطواط او غراب . ولا على ثعلب و ذئب او ضبع او ظربان . ولا على عشبة او شوكة او اي نبتة وجودها يوذى عيوننا وانوفنا او يوذى الزرع في حقننا و الزهر في حديقتنا ، او الاشجار في بستاننا . وننتهي بان نزيل من طريقنا جميع الذين آراؤهم تخالف آراءنا ، واذواقهم لا تأتلف واذواقنا ، وصورهم لا تصادف استحساناً ورضى في عيوننا .

وقد تبادى بنا الغيرة على الحق - حقنا ، وعلى الخير - خيرنا ، وعلى الجمال - جمالنا ، فمضى نشذب حتى الشمس والاقمار والجوم على هوانا . هذا نجم لا هداية لنا فيه . فلنمحقه . وهذه شمس تحرقنا . فلنظفها . وهذا قمر يضيء ساعة لا نريده ان يضيء . ولا يضيء ساعة نريده ان يضيء . فلنطرحه في هاوية العدم . ونرتد بعد ذلك الى هذا الكوكب الصغير الذي هو ارضنا ، فنرفع هنا وادياً ، ونخفض هناك جبلاً ، وهناك نجفف بحراً ، ونسد منافخ الرياح اللافحة بحرها وبردها ، ونلجم البرق ، ونخرس الرعد ، ونحذف من الفصول ما نشاء ، ونبقي ما نشاء ، ونعدل حرارة الشمس وسرعتها حسبما يحلو لنا في هذه اللحظة او تلك من وجودنا . ان مجرد التفكير في مثل هذه الافتراضات ليعت القشعريرة في اجسادنا وينشر الظلمة في نفوسنا . فمن الاكيد انه لو صح لكل منا ان يطبق على الكون مقاييسه في الحق والخير والجمال لما بقي هنالك من كون ، ولكان العدم نهايتنا ونهاية كل شيء . اما قصدي من هذه الافتراضات فليس اكثر من ان ابين لكم ان الاحكام التي نصدرها نحن على الناس والاشياء هي ، في الغالب ، احكام مبتورة . لانها صادرة عن بشر ما اكتملت بعد معرفتهم للناس والاشياء ، وللغاية من وجودهم ووجودها وللأساليب التي تستخدمها الحياة معهم بغية الوصول بهم الى

تلك الغاية ، فجدير بنا ، ونحن من المعرفة حيث نحن ، ان لا نتصلب في مفاهيمنا عن الخير والحق والجمال . وان لا نتحمس لها الى حد ان لا نترك محلاً لسواها . بل علينا ان نجري في ذلك على السنن التي تجري عليها الحياة في الطبيعة من حولنا . وها هي الطبيعة تهتم بالقملة والنملة ، وبالخرباء والخنفساء اهتمامها بالفراشة والنحلة ، وبالاسد والغزال . ولا تحنو على النسر والهزار فوق حنوها على الخفاش والغراب . ولا تخطر على الارزة والسندبادية وتحبس غيبتها عن العوسجة والعليقة . ولا تشرق شمسها على العالقة دون الاقزام ، وعلى الابرار دون الاشرار . فحقها للكل ، وخيرها للكل ، وجمالها للكل . وهي اذا ما غيرت او بدلت في اوضاعها واشكالها والوانها فحياً بالكل وغيره على صالح الكل . وهي لا تبصر ذاتها اعضاء واجزاء مبعثرة . بل وحدة متماسكة ، متألقة ، متآخية اقل ما فيها يتم اجل ما فيها .

ان الاشجار الباسقة وحدها لا تؤلف الغاية . بل لا بد في الغاية من ادغال واشواك ولبلاب . وان البناء لا يقوم بالحجارة الكبيرة وحدها . بل لا بد مع الكبيرة من صغيرة ، ولا بد من الطين . والصورة لا تتم بالنور وحده . بل لا بد مع النور من ظل . وهكذا الادب يستحيل ان يكون ادب عباقرة لا غير . بل لا بد مع العباقرة من انصاف عباقرة ، ومن كتاب وذكراء ما زارتهم العبرية حتى في الحلم ولا مستهم بنفس من انفاسها . لا بد مع المبدعين من مقلدين ، ومع النور من خنافس ، ومع البلابل ان غرابان . واذا ذلك فما هو عمل الناقد ؟ اليس من الافضل له وللادب ان يصرف مواهبه في الانتاج ، وان يهتم بنقد ما ينتج بدلا من الاهتمام بنقد ما ينتجه الغير ؟ وفيه ضيق صدره بما يقوله ويكتبه الغير ؟ ولو انه تعلم ان الطبيعة لاتسع صدره ان يقول : « نحن بنو العباس نجلس على الكراسي » اتساء لمن يقول : « خفف الوطء » ما اظن اديم الأرض الا من هذه الاجساد .

اجل . فلنخفف الوطء . لا لأننا اذ نمشي نمشي على اجساد الغير . بل لأننا نمشي على اجسادنا واجسادهم ، وعلى ارواحنا وارواحهم كذلك . وليكن همنا الاول والاخير ان ننطق بالحق كما نفهم الحق ، وان نعمل الخير كما نفهم الخير ، وان نخدم الجمال كما نفهم الجمال . ثم ان نترك للغير مثل ما نترك لانفسنا من الحرية في قول ما يرونيه حقاً وخيراً وخملاً ، والحياة كفيلة بغربة ما نقول ونفضل . فلها وحدها القول الفصل والحكم الاخير .

مينايل نعيمه